فلسفة اللّغة عند عبد الوهاب المسيري مدخلا إلى التّوحيد الإسلامي

أ. بوسحابة رحمة

جامعة وهران I "أحمد بن بلّة"

"رؤية الإنسان يُعبَّر عنها من خلال اللغة ،و طريقة التعبير تُؤثِّر في الرؤية فنحن نتأثَّر بالنظام الإشاري الذي نستخدمه ،و لكن تُوجـــــد وراء هذه الصيرورة اللّغوية إنسانية مشتركة خارج النظام الإشاري (مدلول متجاوز)"
عبد الوهاب المسيري –اللغة والمجاز ،ص 150.

تمهيـد:

تحتلّ اللّغة وفلسفتها جزءا رئيسيا في المشروع الفكري للدكتور عبد الوهاب المسيري، وهو تأسيس حداثة إنسانية إسلامية بديلة عن الحداثة الغربية العدمية كما يصفها، وذلك باعتبارها-أي اللغة-تضطلع بوظيفة وصف عناصر هذا المشروع وضبط مفاهيمه التي تشكّل وحدات نسقه الفكري،إضافة إلى اعتباره تصويب مسار المنعطف اللغوي في الفكر الغربي مرحلة ضرورية في نقده ونقضه لاحقا تمهيدا لإحلال النموذج الإيماني مكانه.

غير أنّه وبالرغم من مركزية المبحث اللغوي في فكر المسيري إلّا أنه لم يحظ بالاهتمام الكافي من طرف الباحثين الذين ارتبط المسيري في أذهانهم

بالصهيونية واليهودية التي انصرف إلى دراستها زهاء الربع قرن وألّف فيها موسوعته الشهيرة "اليهود واليهودية والصهيونية"، وهو ما يحاول بعض الباحثين تداركه بإجراء دراسات حول مشروعه اللغوي منها ورقة بحثية للباحثة الأردنية "فاطمة صمادي" بعنوان"عندما يدخل المصطلح عملية الصراع" ضمن كتاب "في عالم عبد الوهاب المسيري،حوار نقدي حضاري المجلد الأول"،والتي عرضت فيها كفاءات المسيري في الإدارة المصطلحية،ومنهجه في توليد المصطلحات والذي يقوم بشكل أساسي على مفهومه للمدلول المتجاوز،كما تبرز في هذا الإطار الدراسة التي أجراها الباحث هلال محمد الجهاد،و التي تحمل عنوان "عين الحر،العلاقة بين الدال والمدلول ووحشية النموذج المعرفي الغربي"، والتي عرض فيها رؤية المسيري حول الإشكالية الأساسية في فلسفة اللغة في الغرب وهي "علاقة الدال بالمدلول"، وما تحمله في ثناياها من إلغاء للمرجعية الإنسانية والإلهية، ليخلص في الأخير إلى اعتبار ما جاء به المسيري في مجال الفكر اللغوي تجديدا في مجاله تبلور بشكل عملي في كتاب "اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود" الذي يعتبر ذروة إنتاج المسيري وأعلى كتبه تجريدا،و قد حاولنا في هذه الورقة مواصلة البحث في المرحلة اللاحقة التي تلت نقد المسيري للفكر اللغوي الغربي وتفكيكه وهي مرحلة تقديمه لفكر لغوي بديل يرتبط بالمرجعية الإيمانية المتجاوزة والذي يقوم بشكل أساسي على مفهوم المدلول المتجاوز.

فلسفة اللغة:

اللّغة خصيصة الإنسان، والعنصُر الرّئيسي في تعريفه من حيث هو مخلوق ناطق،فبها يستطيع التّعبير عن ذاته وواقعه رؤيته من جهة،وتحقيق التّواصل مع الذّوات الأخرى سواء تلك التي يتزامن وُجوده معها،أو تلك الّتي تعيش في زمن لاحق أو سابق له من جهة أخرى،وباللُّغة استحقّ الإنسان مكانة الخليفة ومركز الوجود،وهو ما يُعبِّر عنه القرآن الكريم في مشهد الحوار الذي

جرى بين الله-عزّ وجلّ- والملائكة في جنّة عدن،ومحاجَتِهم حول اختيار الإنسان لأداء أمانة الاستخلاف بالقدرة على التّسمية:" قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُون" البقرة33،وما تبِع ذلك من سجود الملائكة لآدم عليه السّلام تكريما له،و بذلك بدأ تكريم الإنسان مع اللّغة.ومع تقدّم الحضارات الإنسانية وتطوّر المعرفة،اضطلعت بوظائف جديدة،تتناسَب مع الوضع الجديد للإنسان،باعتباره خليفة في الأرض هذه المرّة بعد خروجه من الجنّة.

وقد كانت اللّغة محلّ درسٍ وتأمّل في التّفكير الإنساني منذ القِدم، في ما يُصطَلح على تسميته بـــ "بفلسفة اللّغة"التي يُقصد بها،بشَكل عام،مجموعة الأفكار الّتي تدُور حول طبيعة اللّغة وأصلها وما يتعلّق بها،ومحاولة تفسير دورِها في التجّربة البشرية[1]،وقد أُثيرت الأسئلة حول هذا الموضوع بداية في العهد اليوناني*،وخاصّة حول طبيعتها،هل هي خاضعة لحكم الطبيعة أم للاصطلاح،حتى شكّلت هذه القضيّة محور التفكير الفلسفي اليوناني،فآمن أفلاطون والطبيعيون بالعلاقة الطّبيعيّة بين الأسماء والأشياء،فيما نادى أرسطو باصطلاحية اللّغة باعتبارها من صنع الإنسان الذي ابتكرها،وجعل لها مفاهيم تُكوِّن في مجموعها رصيده اللّغوي، واستمرّ هذا الجدل في الثقافة اليونانية حتّى سقوط أثينا بيد الرومان،الذين ورِثوا حضارتها واستوعبوها بشكل كامل عبر التّرجمة،فتراجع البحث في اللّغة وفلسفتها لصالح البحث النّظري في

[1]- ينظر سيلفان أورو،جاك ديشان،جمال كولوغلي،فلسفة اللغة ترجمة بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة ط 1،2012م ،ص 34

* مسألة اللغة والتقعيد لها،أي الجانب النحوي،كان قد عُرف قبل اليونان بوقت طويل،في حضارات بلاد الرافدين المتعاقبة وعند الفينيقيين وغيرهم،وبشكل أكبر في الحضارة الهندية مع نضج علم النحو الهندي،إذ يعود تاريخ نحو اللّغة السنسكريتية عند بانيني Panini إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، لكن التفكير الفلسفي حول اللغة هو الذي ظهر مع اليونان .

التّرجمة،والاستغراق في فعل التَّرجمة نفسه،والسّهر على تقليد الموروث اليوناني بغرض تقوية الثقافة اللّاتينية،الّتي كانت مُتعثِّرة وتعاني من الهشاشة آنذاك.

ومع تقهقر الحضارة الرُّومانية،وسقوطِها في نهاية المطاف،كانت حضارة أخرى في طور البروز،هي الحضارة العربيّة الإسلامية،الّتي وبتأثير ترجمة الفلسفة اليونانية ومبادئ المنطق الأرسطي إليها،انتقلت إلى مرحلة أخرى،بعد مرحلة التأسيس في العهد النبوي والراشدي ،والانتشار الجغرافي في العهد الأموي،إلى العهد العباسي،عهد البحث والنّظر والتّثاقف مع الحضارات الأخرى، وكان لهذه النقلة تأثيرها الطبيعي على البحث اللغوي من جملة المعارف والعلوم التي تأثّرت بالفلسفة اليونانية بوجه خاص،فتناول العلماء المسلمون مسألة اللّغة بالدرس والبحث في الماهيّة والوظيفة،متواضِعين على كون اللغة مفتاح معرفة الوجود،فلا سبيل إلى معرفة حقائق الأشياء بدون توسُّط اللّفظ كما يقول ابن حزم،وهي وسيلة تسخير الكون وتحرير الإنسان،بدفْعِه من السّكون إلى الحركة بتعبير ابن خلدون،و هي الطّاقة نفسها التي عبّر عنها عبد القاهر الجرجاني بـ"القادح" لخروج كوامن الإنسان،و طاقاته من حيّز القوّة إلى حيّز الفعل.و يصل الاعتداد باللّغة ذُروَته عند العلماء العرب مع الجاحظ وابن رشيق،بجعلهما اللّغة المركز في الوجود الإنساني،وابن حزم الذي جعل الكلام دليلا على وجود الله والنبوة بل وعلى حدوث النوع الإنساني نفسه"لأنّه لا سبيل إلى بقاء أحد من الناس ووجوده دون كلام"[1] فجعل بذلك قِوام وجود الإنسان اللّغة،و هي الفكرة التي قام بتوسيعها فيما بعد، وذلك بقوله أنّ اللّغة،إلى جانب

[1]- ينظر أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، الإحكام في أصول الأحكام، طبعة محققة الجزء الأول ، ص 30.

كونِها منفذَ كلّ مظاهر التّواصل مع الموجود،فإنّها جسر الإنسانية إلى كل القيم المجرّدة[1].

وقد كان من الممكِن لهذا الفكر المتقدّم حول اللّغة،والذي يربطها بالتّجريد،أي بالفكر والفلسفة،أن يكون مدخلا لتأسيس علاقة مُتكامِلة بين اللّغة والفكر وِفق الرّؤية الإسلاميّة في التراث الإسلامي،فيما يمكن تسميته بـ" فلسفة إسلامية للغة"،لكن ومع بداية تقهقر الحضارة الإسلامية،تراجَع البحث في المسألة اللغوية من جهة ربطها بمرجعيتها المجرّدة بشكل كبير،ليقتصِر على دراسة الجوانب المعجمية والنحوية والدّلالية فحسب،في تضييق جغرافي على اللّغة وعلومها أدّى بها،و بمختلف العلوم المرتبطة بها إلى الجمود،والّذي أدّى بدوره،من جملة عوامل أخرى،إلى انحطاط الحضارة الإسلامية وتوقّفها عن العطاء،و يُعزى ذلك إلى أسباب عدّة أهمها توقّف المسلمين عن الأخذ بالفلسفة ومناهجها في دراسة الظواهر الاجتماعية والإنسانية،و اللّغة من بينها، نتيجة الفِتَن الّتي حدثت بين علماء الشريعة والفلاسفة،جراء الجدل حول نقل الموروث الفلسفي اليوناني.

وفي الوقت الذي كانت فيه الحضارة الإسلامية تعيش أزهى عصورها، كانت أوروبا بعد سقوط روما، قد دخلت في عصورها المظلمة.و كان للّغة والدّين دور أساسي في دخولها هذا النفق،ذلك أنّ لغة الكتاب المقدّس وهي اللّاتينية آنذاك- والتي كانت بدورها ترجمة عن اليونانية والعبرية عن الآرامية- حِكراً على الكنيسة الكاثوليكية وبابواتها دون الرعيّة،فهم من يملِكون القدرة والحقّ في قراءة الكتاب المقدّس،وتأويل معانيه نيابةً عن النّاس،والتوسُّط لدى الرّب باسم هذا الحقّ المقدَّس،فأصبحت اللّغة بذلك وسيلة للسّيطرة على الشعوب الأوربية،وتوجِيهها واستِغلالها في أغلب الأحيان لصالح رجال

[1]- ينظر عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب ط 2، 1986 ص 47-53-54.

الـدّين،إلى أن جـاءت حركـة الإصـلاح البروتسـتنتي فـي القـرن السـادس عشـر للميلاد،التـي قـادت مسـيرة إخـراج أوروبـا مـن عصـور الظـلام إلـى التّنـوير،عبر ترجمة الكتاب المقدّس إلى بقيّة اللّهجات الأوربية، التي أصبحت لغات فيما بعـد.و فـي رحلـة التّرجمـة الطويلـة هـذه أُضـيفت معـانٍ جديـدة وحُـذفت أخرى،وتغيّـرت كثيـر مـن ملامـح ومبـادئ الـدّين المسـيحي الأصـليّة،ذلك أن الترجمة كما يرى "جيرار جونات"Gérard Genette ،البنيوي الفرنسي الشهير،لا يُمكِن أن تكون نسخة مطابقة للأصل مهما حاول المترجم ذلك[1].

وقد أدّت هذه التبديلات الحتميّة التي فرضتها التّرجمة على الكتاب المقدّس،إلى الاشتباه في كثير من القضايا على المؤمنين بالمسيحيّة،خاصّة تلك المتعلّقـة بمسـألة التوحيـد،باعتباره المبـدأ الأوّل مـن مبـادئ الإيمـان فـي كـل الديانات التّوحيديّة،وهو الخطر الذي استطاع النموذج الإسلامي تفاديه إلى يومنا هذا،من خلال رفض اعتبار ترجمة القرآن الكريم قرآنا بل مجرد تفاسير.و قد تناول الدكتور"إسماعيل راجي الفاروقي"(1921-1986م) في كتابه "التوحيد" هذه المسألة،أي علاقة اللّغة بالتّوحيد،بالبحث والتحليل،مرُكّزا بشكل خاصّ على مبدأ الثنائية المنبثِق عن التّوحيد وعلاقته باللغة،لِما له من تأثير مباشر على الفكر اللغوي المعاصر.

ويقصِد الفاروقي بمبدأ الثّنائية الإيمان بوجود نظامين مُتمايزِين في الكون،نظام الإله،ويقتصر على الله المتعالي السّرمدي الذي لا شبيه له،و نظام المخلوقات وما يتعلّق بها،والإيمان في الوقت ذاته،بأنّ نظام الخالق مُغايِرٌ،وبشكل مُطلق،لنظام المخلوقات،و من الاستحالة أن ينصهر أحدهما في الآخر أو يحلُّ فيه،و يكر ابن القيّم في كتاب"اجتماع الجيوش الاسلامية"عن اسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي أنه قال في كتاب"الحجة"/ قال قال علماء

[1] See Gérard Genette Palimpsestes translated by Channa Newman and Claude Douninsky translated by the university of Nebraska USA 1997 p 212

السنة:إن الله عز وجل على عرشه بائن من خلقه، وقال أيضا: أجمع المسلمون أن الله سبحانه العلي العلي الأعلى، قال: فنثبت أنّ لله تعالى علو الذات،و علو الصفات، وعلو القهر والغلبة"[1] و هذا الشّرط الأخير كان،و لا يزال،يُشكِّل جوهر الاختلاف بين الديانات التّوحيدية،و يقارن الفاروقي على أساسه الدور الذي لعبته اللّغة بالنسبة إلى هذه الديانات من جهة النصوص التي تُعبّر عنه،و قد أعانه في بحثه هذا خلفيته الثقافية الواسعة،وموسوعيته،و عيشه في الولايات المتحدة الأمريكية لفترة طويلة.

ومن خلال بحثه في النماذج الكامنة خلف النّصوص اللّغوية في الديانات المختلفة،يَكشِف الفاروقي أنّه في الوقت الذي حافظت فيه اللّغة العربية على مبادئ التوحيد نقيّة كاملة،بمراعاتها للطّابع المتعالي المفارق للذّات الإلهية،فإنّ النّصوص اليهوديّة والمسيحيّة فَضَحت تلوُّث فكرة التوحيد في كلا الديانتين،ويقدّم شواهداً من العهد القديم على تحريف اليهود لفكرة التّسامي المفارِق المطلَق للذّات الإلهية،كحديثهم عن "الرّب" في صيغة الجمع في التوراة كلّها،وادّعائهِم أنّ أبناء الله تزوّجوا ببنات البشر،وأنّ"الله"أب ملك اليهود،بل ووالد الأمّة اليهوديّة:"فَإِنَّكَ أَنْتَ أَبُونَا وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْنَا إِبْرَاهِيمُ،وَإِنْ لَمْ يَدْرِنَا إِسْرَائِيلُ.أَنْتَ يَا رَبُّ أَبُونَا،وَلِيُّنَا مُنْذُ الأَبَدِ اسْمُكَ" أشعياء 63: 16،فهذا الإله،باعتبار هذه النّصوص،ليس متعاليا متجاوزا،بل هو إله مقيّد،يُنعِم على شعبه المختار رغم وقوعه في الرذيلة والجور والعناد.

وبعد اليهوديّة ينتقل الفاروقي إلى المسيحية التي تُسبِّب نصوصها، بحسبه، حرجاً حقيقيّاً لمعتنقيها،بجنايتها على الصّفة المتعالية المفارِقة للذّات الإلهية،فقد مَدّت المفهوم المتعَالي للرّب، أب الملك اليهودي،إلى إزالة الصّفة المفارِقة بقولها بوحدة الجوهر بين الله وعيسى عليه السّلام،و يرُجِع الفاروقي

[1]- ينظر محمود بن عبد الله بن حمود التويجري، إثبات علو الله ومباينته لخلقه، مكتبه المعارف الرياض السعودية، الطبعة الأولى / 1985 م ص 45/44

ذلك إلى الانحراف في تأويل مفاهيم عبرية وآرامية كانت متداولة بين معاصري المسيح،مثل كلمة "كبير" و"قدّيس" التي هي مجرّد أوصاف كانت تُطلق على أيّ شخص له سلطة بين السّاميين آنذاك،فظنّها المتأخّرون تعني أنّ الساميين اعتبروا عيسى إلهاً،إضافة إلى استنادهم للعهد القديم (الجزء الأوّل من الكتاب المقدّس)،و فيه ضمائر الجمع المُعبّرة عن الذات الإلهية في "سفر التكوين"فاعتبروها دليلا على تعدّد الآلهة.و قد انعكست حالة التردّي هذه في فكرة التّسامي لدى المسيحيين على اللّغة التي يعبّرون بها، والّتي أصبحت غير ملائمة،فلجؤوا إلى لغة غامضة نتيجة عدم تناغم أفكارهم حول المسيح،فهم يقولون به إنسانا،و يقولون بتعالي الرّب في الوقت ذاته[1].

ويؤيّد طرح الفاروقي هذا،مقولة"الحرف الذي يقتل والروح التي تحيي" الشّهيرة في الفكر المسيحي،وهي العبارة التي سكّها "القدّيس بولس" Saint Paul "في رسالته إلى أهل رومية،الّذين طالبوا بالالتزام بحرفية الناموس، أي الكتاب المقدس، فقال أنّه ليس ضد النّاموس بل ضد الحرفيّة في النّاموس:" والّذِي جَعَلَنا كَفَاءَة لِأنْ نَكُونَ خُدّامَ عَهْدٍ جَدِيدْ،لا الحَرْفُ بَل الرُّوحْ،لأَنَّ الحَرْفَ يَقْتُل ولَكِنّ الرُّوح يُحْيِي" (كورنثوس الثانية 3: 6)، وهي دعوة للأخذ بالكتاب المقدّس عبر التّأويل فحسب،في محاولة للخروج من مأزق التناقض في المبدأ،الذي وضعتهم فيه نصوص هذا الكتاب عند قراءتها بشكل حرفي،و يُعزى إلى بولس أنه أوّل من أدخل فكرة التّجسّد والتثليث في المسيحية،نتيجة اجتهاداته في قراءة النص المقدس،و خلفيته اليهودية الأصليّة،و اتّبعه في ذلك بقية الرسل والقديسين على مدى قرون من الزمن ظلّت فيها أوروبا تعيش عصورا مظلمة، يرعى ظلمتها ويطيل أمدها رجال الدين، الذين احتكروا النص الديني بكل

[1]- ينظر إسماعيل راجي الفاروقي ، التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، ترجمة السيد عمر 2010م /1431 هـ ،ص من 44 إلى 70

متناقضاته،ومخالفته لقواعد التفكير المنطقي،إلى أن ظهرت الحركات الإصلاحية الدينية التي رعَت عمليّة الخروج من عصور الظلام،بعد صراع طويل ودامٍ مع رجال الدين.

وقد حاولت الكنيسة الكاثوليكية تفادي هذا التّغيير بكل قوّتها،بتجريمها النقل عن العرب والمسلمين،الذين كانوا حينها روّاد الحضارة الأكثر ازدهارا في ذلك الوقت،لكنّها فشلت في نهاية المطاف في وقف هذا الزّحف القادم من الشرق،فعاد أرسطو بفلسفته،و على رأسها المنطق،إلى الغرب الذي لم يكن يعرف عنه إلا القليل قبل ذلك،عبر الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد،بترجمتهم لكتبه ومؤلّفاته إلى جانب مؤلّفات أفلاطون إلى اللّغة اللاتينية والعبريّة،لكنّ تأثير أرسطو كان حاسما،فقد أدّى تفعيل فلسفته وأدواته المنطقية في النموذج الغربي،عبر قرون طويلة،إلى الكشف عن التناقضات المنطقية في الإيمان المسيحي،ففضّل الغرب،تلافياً للمواجهات الدّموية التي حصلت آنذاك،تبنّي فكرة فصل الدّين عن الحياة العامة وقصره على دور العبادة، والالتفات إلى التّحديث والتُقدم الدنيوي.

غير أنّ هذا الخيار لم يكن ليمرّ هكذا دون تعقيدات على مستوى النموذج الغربي في كليته، وبشكل خاصّ في مسألة اللّغة التي ستضطلِع بمهمّة وصف هذا الانتقال والتأثير فيه ورعايته،فالانتقال هنا يتطلّب لغة جديدة بفكر لغوي جديد،تناوله المفكر المصري "عبد الوهاب المسيري"(1938-2008م) بالدّرس والتحليل.فبدأ من حيث انتهى الفاروقي*في تحليله لمسألة اللّغة وعلاقتها بالفكر اللاهوتي في الغرب بشقّيه المسيحي واليهودي،فاهتمّ هو بالمرحلة اللّاحقة التي تلت خروج الغرب من عصور الظلام إلى عصور التنوير والتّحديث والثورة الصناعية حتّى مرحلة ما بعد الحداثة،باحثاً عن النموذج الكامن وراء لغة هذه المرحلة، والذي يصِفه بالنّموذج الكُموني الحُلولي

المادّي[1]، فيما يبدو استمرارا ضمنيا للمأزق الفكري والروحي الذي عاشه الغرب على مستوى العقيدة،ومبدأ التوحيد بشكل خاص،متمثّلا في إشكالية التجسّد،و ثنائية الخالق والمخلوق التي لم تُحسم إلى يومنا هذا في الثقافة الغربية.

جذور الوعي اللغوي عند عبد الوهاب المسيري:

رافق الوعي بمسألة اللغة عبد الوهّاب المسيري في رحلته المعرفية الطويلة،وتعود جذور هذا الوعي إلى سنوات دراسته الجامعية الأولى،فهو يذكر في سيرته"رحلتي الفكرية،في البذور والجذور والثّمر" حادثة تنمّ عن هذا الوعي المبكر باللّغة[2]،فقد حضر إلى مصر في السّتينات من القرن الماضي البروفيسور "إيان جاك" « Ian Jack" أستاذ الأدب الرومنتيكي بجامعة كمبريدج Cambridge University،و كان المسيري حينها قد حصل على بعثة جامعية لمواصلة دراسته في الخارج، فنظّم مجموعة من أساتذته لقاءا له بالأستاذ الضيف،على أمل تمكينه من الحصول على تزكيته للظفر بمقعد للدّراسة في"كمبريدج"، غير أنّ المقابلة لم تكن وديّة كما وصفها المسيري،ذلك أن "إيان جاك" أنكَر على المسيري جُرأته في الوصف والّتسمية، وجنوحه للتّجريد والتّعميم،مُلمِّحا إلى أنّه لم يجرؤ هو نفسه على فعل ذلك حتى في تخصّصه الذي تمرّس فيه،و هو "الشعر الرومانتيكي"،فلم يسمّ الظاهرة الأدبية التي يتخصّص في دراستها بـ"الرومنتيكية" من الأساس،رفضاً منه للتّعميم وحذراً من الاصطلاح ! وهي الفكرة التي لم يقتنع بها المسيري،و انتقدها بشدّة،بل ووصفها بالفكرة غير

[1]- ينظر عبد الوهاب المسيري،اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود،دار الشروق ، القاهرة مصر، الطبعة الأولى 2002م،ص 8.

[2] ينظر عبد الوهاب المسيري ، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار ،الهيئة العامة لقصور الثقافة ،القاهرة ط1 2000 ص 106/105.

* إسماعيل الفاروقي هو واحد من أهم مُلهمي عبد الوهاب المسيري فكريا،و يعتبر مشروعه الفكري مواصلة لمشروع الفاروقي"إسلامية المعرفة".

الصائبة قائلا:"لو تخلّينا عن المصطلحات فسيصبح لكل منّا لغته الخاصّة التي لا تمُكّنه من التواصل مع الآخرين، بل وتُقوِّض فكرة العلم نفسه"[1].

وكلّفت هذه الجرأة المسيري خسارة المقعد في كامبريدج،فغيّر وجهة البعثة إلى جامعة كولومبيا Columbia Universityبنيويورك، دارسا للّغة والأدب الانجليزي في العام 1963،و احتكّ هناك بالمجتمع الأمريكي، واستغرق في تفاصيل الحياة الغربية بكافّة مجالاتها، واعترك مع نموذجها المعرفي بكل تمفصلاته، واطّلع على مختلف التيارات الفلسفية الغربية التي تُمثِّل الحضارة الغربية وتنظِّر لها،وقرأ لفلاسفتها ومفكّريها، فكان ينتقِل من تيّار إلى آخر ومن نسق فكري إلى آخر،لكنّه ظلّ يحتفظ بحسّه النقدي، واعتداده بنفسه وقدراته،واعتزازه بانتمائه لمجتمعه الدّمنهوري-مسقط رأسه- المصري العربي الإسلامي الإنساني،فلم ينبهِر بهذه الحضارة، ولم يعتبرها مطلقا،بل اعتبرها مجرّد تجربة في التاريخ،كغيرها من التّجارب البشرية لا يجب تعميمها بالضّرورة.

ثم عاد بشكل نهائي إلى بلده مصر سنة 1979 م،حاملاً معه إيمانا واثقا بالإنسان،و بقدرته على تغيير واقعه،محاوِلا الاندماج في مجتمعه الصّغير ومجتمعه العربي والإسلامي الأكبر، فشرع في رحلة انتقال بين مختلف الدول العربية والإسلامية،ليحتكّ بثقافته الأصليّة من جديد،احتكاك بالمعنى الأخلاقي والحضاري وليس المادي فحسب[2]،وشَهِد العجز والقصور الَّذيْن يعتريان مختلف نواحي الحياة في العالم الإسلامي،فحاول الوقوف على أسبابهما ومظاهرهما،وأدرك أن السّبب الرئيس لا يكمن،كما روّج كثير من المفكرين الذين عاصروه،في عدم القدرة على اللّحاق بالنموذج الغربي،حتّى وإن كان هو

[1] عبد الوهاب المسيري .سلسلة حوارات .الثقافة والمنهج ، تحرير سوزان حرفي ، دار الفكر دمشق ط 2006 م ، ص 109

[2] - ينظر عبد الوهاب المسيري ،رحلتي الفكرية : في البذور والجذور والثمر، ص 167

النموذج المعرفي الوحيد الكامل في التاريخ،بل إن الخلاص ونهضة الأمة وبناء النموذج العربي الإسلامي،بحسبه،لا يكون بمعاداة هذا النموذج معاداة مطلقة،ولا باستنساخه ومحاكاته تلفيقا أو توفيقا، وذهب إلى أبعد من ذلك حين أرجع أهمّ أسباب فشل نهضتنا إلى هذه المحاولة السّاذجة للتّماهي مع الغرب،و احتقار الذّات وخصوصياتها الحضارية وتميّزها،نتيجة غياب الوعي بالمفاهيم الأساسية التي تبُنى عليها كل المشاريع النّهضوية والنماذج المعرفية.

واستطاع المسيري أن يصوغ هذه الآراء ضمن مشروع فكري حضاري،سعى من خلاله إلى الدّعوة لإقامة حداثة إسلامية إنسانية جديدة،بديلة عن الحداثة الغربية "الماديّة"،كما يصفها، تُشارك في الحضارة الإنسانية ولا تنفصل عنها،فهي"جزء من المحاولة الإنسانية العامّة التي تُحاول تجاوز الحداثة الداروينية،المنفصِلة عن القيمة،المبنية على الصّراع،و التنافس والتقاتل والاستهلاك المتصاعد"[1]، ويصوغ المسيري هذا المشروع الإيماني وفق رؤيته للعالم التي تستنِد إلى مرجعيته الإسلامية والمعرفية،و التي تشمل أنساقا متعدّدة تشكل في مجموعها مشروعه الفكري الخاص،بناءا على موسوعيته وتوظيفه لمعارفه الطويلة خلال مسيرته الفكرية التي بدأها كعلماني مادي،لكنه بدأ يدرك وبالتدريج أن المادية،التي هي جوهر العلمانية بمفهومها الغربي،غير قادرة على تفسير ظاهرة الإنسان وكل ما يتعلّق به،و أنّه لا يُمكِن تفسير هذه الظاهرة دون اللجوء إلى نماذج غير ماديّة،و عاد بذلك إلى الرؤية الإيمانية،التي كانت كامنة أصلا في وجدانه، فوصل إلى الله من خلال الإنسان ولم يصل من الله إلى الإنسان كما كان يردد دائما*،فكانت تلك انطلاقة رؤيته الإيمانية التّوحيدية التي شكّلت نسيج بنائه الفكري فيما بعد.

البعد التوحيدي في رؤية عبد الوهاب المسيري

[1]- عبد الوهاب المسيري ،دراسات معرفية في الحداثة الغربية ، دار الشروق القاهرة مصر / ط 2002 ص 41.

التوحيد هو الركن الأوّل والأساسي في الإسلام،و يعني أنه لا يوجد إله إلاّ الله وأنّه لا يوجد مثله تعالى[1]،فالله عز وجل مفهوم مركزي بالنّسبة للمسلم،مع ما يستوجبه ذلك من استحضار واستحواذ لمعيّة الله في كل شؤون المسلم،وهي رؤية تشتمل على جملة من المبادئ والمفاهيم كالغائية والقدرة والمسؤولية والثنائية[2]،هذه الأخيرة الّتي نالت قسطا كبيرا من الاهتمام من طرف المفكّرين المسلمين المعاصرين،خاصّة وأنّ أكثر الانحرافات التي حدثت في الحضارة الغربية على المستوى العقائدي بداية مع مأزق تجسيد الإله، نهايةً بتأليه المادّة في الحضارة الغربية المعاصرة، كانت نتيجة الخلل في فهم مبدأ الثُّنائية، القائِم على الفصل بين نظام الخالق ونظام المخلوقات،وما يتعلّق به من مفاهيم كالمسافة والتجاوز وغيرها.

ويبني المسيري مشروعه الفكري على أساس هذه الثنائية،التي يفرّق وِفقها بين مرجعيتين يستند إليهما الإنسان المعاصر هما المرجعية النهائية الكامنة، والمرجعية المتجاوِزة [3]:

- **المرجعيّة النهائية الكامنة أو الحُلولية:** وهي تلك التي تكون كامنة في الإنسان أو الطبيعة،و في إطارها يُصبح نظام المخلوقات مرجِعاً لذاته،دون حاجة إلى متجاوِز يُساهِم في تفسير ظواهره أو توجيهها، فهو يَنظُر للعالم باعتباره يحتوي داخله ما يكفي لتفسيره،وهو ما يعني سيطرة الواحدية وبالتّالي الماديّة.ويمضي المسيري إلى أكثر من ذلك بوصفه لهذه المرجعية بالوثنية،باعتبارها محاولة إنزال الآلهة من السّماء إلى الأرض وإدخالها في نطاق

[1]- ينظر نوح علي سليمان القضاة،المختصر المفيد في شرح جوهرة التوحيد،دار الرازي للطباعة والنشر والتوزيع،الطبعة الأولى، 1999،ص 56.

[2]- إسماعيل راجي الفاروقي ، م س،ص 33.

[3]- ينظر ممدوح الشيخ، عبد الوهاب المسيري :من المادية إلى الإنسانية الإسلامية،مطبوعات مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي،2008م،صفحات من 207 إلى 234 .

الماديّة المتجسّدة،و يُعتبر هذا أقسى نقد وَجَّهَه الفكر العربي المعاصر للفكر الغربي،من خلال الرّبط بين الرؤية الماديّة للإله والكون والإنسان بوصفها إعادة إنتاج للوثنية، والتي يرى المسيري أنّها السبب الرئيسي في الانحراف الذي تعرفه الحضارة الغربية والعالم بأسره،كالعنف والتسلّط والتألّه في الأرض،نتيجة عدم القدرة على ضبط العلاقة بين الإنسان والإله والطبيعة، والّتي لا يمكن أن تُضبَط من دون وجود مرجعيّة غير متشيّئة،تواجِه المآل العبثي للكون والإنسان المعاصر، وهي المرجعية النهائية المتجاوزة.

- **المرجعية النهائية المتجاوزة:** وهي الإله في النظم التوحيدية،خالق الكون المُفارِق له، والذي لا يحلّ في أيّ من مخلوقاته،و لا تحلّ فيه ،و هو ما يعبّر عنه الإمام الغزالي بقوله أنّه"بائن عن خلقه بصفاته، ليس في ذاته سواه ولا في سواه ذاته"[1]،و يقرّ المسيري بضرورة الاعتراف بمركزية الإنسان في الكون،باعتباره مُكلّفا من الله بحمل أمانة الاستخلاف، وارتباطه الجوهري بالله فيما يسميه بـ"الإنسان الرّباني"،الذي تحرّره هذه المرجعية من المادّة،وتُفعِّل الجانب الروحي فيه.

ويعتمِد المسيري في توصيف هذه المرجعية على مفهوم المسافة،أي وجود فروق بين الإله والمخلوقات وحدود بينهما لا يمكن تجاوزها[2]،و في الوقت ذاته علاقة اتّصال وتوجيه واستلهام للمعيار،فهو يستَقي من النظام المتعالي القيم الحاكمة لتفاعله مع النظام الطبيعي،و يستند مفهوم المسافة إلى

[1]- أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، احياء علوم الدين ج 1، المكتبة التوفيقية، القاهرة مصر، الطبعة السادسة 2012، ص.39 .

[2]- ينظر ممدوح الشيخ ،م س ،ص 219

مفهوم آخر هو التجاوز، الّذي يُمكِّنُنا من تخطّي الثنائيات الجامدة بين الدين والعقل،أو بين الروح والمادة،أوبين الإنسان والطبيعة[1].

وقد حافظ المسلمون على اختلاف ألسنتهم على هذه المرجعية المتجاوِزة، والمسافة بين الله ومخلوقاته في تعبيرهم إلى اليوم،في حين انعكست المرجعية الواحدية الكمونية على اللّغة وفلسفتها في الغرب منذ بداية التحديث وصولا إلى ما بعد الحداثة،وهي الفترة التي اهتمّ المسيري بدراستها والبحث فيها،محاوِلا الكشف عن النموذج الكامن وراء الرؤية اللغوية لكل حقبة فيها، ونقده وتفكيكه،ومن ثمّة القيام بعملية تركيبيّة بسَط فيها رؤيته الخاصّة للغّة، وتصوّره لعلاقتها المرجعية المتجاوزة.

اللغة ومأزق المرجع في الحضارة الغربية

يربط المسيري اللّغة بالرؤية وطريقة التفكير بشكل عام، فهو يُقرُّ بالعلاقة العضوية بين الفكر واللّغة،وهو أمر ثابت في الفكر اللّغوي قديمه وحديثه، إذ أنّ اللّغة"تفرِض على الفكر جملة من التمييزات المختلفة والقيَم الذّاتية"[2]، كما أن لكلّ مجتمع نمط في التفكير وبالتّالي طريقة في التعبير،تُرفَق بمنطق خاص في فقه الأمور، فاللّغة هي عملية تأطير لأفكارنا على نحو يتلاءم مع مقولاتنا الذهنية[3].و يُناقِش المسيري،في مؤلّفاته،و على رأسها كتابه"اللّغة والمجاز بين التّوحيد ووحدة الوجود"،هذه العلاقة بين رؤية الكون واللّغة في النموذجين الغربي والإسلامي،لكنّ تركيزه كان على النموذج الغربي الحديث والمعاصر،باعتباره النموذج المهيمِن على العالم اليوم.

[1]- ينظر مجدي الجزيري، الغرب والغرب والإسلام بين ادوارد سعيد وعبد الوهاب المسيري،مجلة أوراق فلسفية، العدد 19،سنة الطبع 2008م،القاهرة مصر، ص 383

[2]- جيرارد جهامي، الإشكالية اللغوية في الفلسفة العربية، دار المشرق بيروت لبنان ط 1،1994م ، ص 14

[3]- ينظر م ن ص 13/9.

ويدرس المسيري الفكر اللغوي الغربي من خلال ربطه بأدوار الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة، ومحاولة إدراك النماذج الكامنة خلف فلسفتها،فيرصد تطوّر النّظر إلى اللّغة من خلال ثلاث مراحل أساسية تُشكّل في تتابعها وتطوّرها وتطوّر اللغة التي تعبّر عنها،متتاليةً لتطوّر معدّلات الكمون والحلولية في الحضارة الغربية،وهي على التوالي[1]:

1- **مرحلة التحديث**: وتمتدّ من عصر النّهضة في الغرب (عصر الاكتشافات) إلى الحرب العالمية الأولى، وهي المرحلة التي كان الإنسان الغربي إبّانها يأمل في السّيطرة على ذاته وعلى الطّبيعة،و تُسمّى هذه المرحلة أيضا بالهيومانية،لكونها تتميّز فكريّا بالتّمركز حول الإنسان والمادّة،أي أنّ العالم في نظر الغرب،آنذاك، كان لازال متمركِزا حول اللوّجوس logocentric،أي متمركِزا حول مطلق ما هو"الإنسان"،لكن دون أي وسائط أومرجعيات متجاوِزة،فيسُود في هذه المرحلة الإيمان بأنّه يمكن تمثيل الواقع بلغة عقلانية شفّافة، وأنّ بمقدور الإنسان أن يتواصل مع الآخرين عبر هذه اللّغة.لكنّ،و مع نهاية المرحلة يكتشف الإنسان الغربي أنّ حدوده غير واضحة وأنّ الواقع غير مستقر،فيدخُل بذلك في المرحلة التّالية وهي "الحداثة".

2- **الحداثة** وتمتدّ من نهاية الحرب العالمية الأولى إلى منتصف السّتينات،يدرك الإنسان الغربي أثناءها أن عصر التحديث المثالي قد انتهى، وأنّه من غير الممكن السّيطرة على الذّات والطبيعة،و أنّ هناك أسبقية للمادّة على الإنسان،و بالتالي بدأت فكرة التمركز حول اللوغوس تهتزّ،و هو ما صعّب مهمّة اللّغة في التواصل بين البشر والتفاعل مع الواقع،فتحوّلت إلى التشيّؤ بفعل غزو عالم السلع، وهو ما أدّى إلى الاحتجاج والغضب جراء فشل المشروع التحديثي، خاصّة مع الظروف السيّئة التي أدّت إلى الحرب

[1]- ينظر عبد الوهاب المسيري،دراسات معرفية في الحداثة الغربية،ص 121 وبعدها .

العالمية الثانية،والآثار الكارثية التي نتجت عنها،لتتواصل متتالية التحديث في التحقّق وصولا إلى مرحلة ما بعد الحداثة.

3- **ما بعد الحداثة:** تم اختيار سنة 1965 لتكون بداية لهذه المرحلة، وفيها يُدرك الإنسان الغربي إخفاق مشروع التحديث بشكل كامل،و ومع ذلك يحاول التّصالح معه،فتبنّى فكرة عالم بلا مركز،أو متعدّد المراكز non.logo centric أي غير متمركز حول أي مطلق،و لا تصبح اللّغة بذلك أداة جيّدة للتواصل كما كان يدّعى دعاة التحديث،فالدّوال منغلِقة على ذواتها،منفصِلة عن المدلولات،ولذا فالمعنى دائما مختلف ومؤجّل (الاخترجلاف) la différance * كما يُعبِّر عنه منظّر ما بعد الحداثة،فيلسوف التّفكيكية جاك دريدا Jack Derrida.

ومن خلال دراسته لهذه المراحل بشكل متتالٍ،يخلُص المسيري إلى مركزية المبحث اللغوي وتأثيره في الحضارة الغربية،إذ أصبحت اللّغة هاجس الإنسان الغربي،بداية من الثّورة البنيويّة الّتي جاءت احتجاجاً على اغتراب الإنسان على الرّغم من توفّر الرّخاء المادي الذي لم يحقّق له الّسعادة ولم يجب عن أسئلته الوجوديّة،فكان هدف البنيوية إنتاج ذات إنسانية جديدة عن طريق ثورة الكلمات،وهو ما يعني أنّ اللّغة تُنتِج الواقع،و أنّها نسَقٌ مستقِلٌّ مكتفٍ بذاته،يحمِل قوانينه بداخله دون العودة إلى أيّ مرجع وإن كان موجودا فهو غير مفهوم،وتمّ بالمصادفة،و أسبقية اللّغة على الواقع تعني بالضرورة أسبقيتها على العقل الإنساني،و هو ما يعني إزاحة الإنسان عن المركز [1] و هو ما عبّرت عنه البنيوية فيما بعد،في أوج تطوّرها، بموت المؤلف في النقد الأدبي عند رولان

* هو مقابل اقترحه المسيري بدمج كلمتين هما "اختلاف وتأجيل"،أي أنّ المعنى يختلف ويُؤجّل في نفس الوقت،حيث من المستحيل معه الوصول إلى تثبيت معنى واحد (مركز واحد).

[1]- ينظر عبد الوهاب المسيري،اللّغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، ص 137

بارت، و"موت الإنسان" نفسه في فلسفة "ميشال فوكو" Michel Foucault (1926-1984م) الذي يرى بأنّ مشكلة اللّغة تُحاصِر الإنسان في عالم الصيرورة الكاملة[1].

وقد أسّس 'فرديناند دي سوسير'Ferdinand de Saussure(1913/1857م) هذا النّهج وخطّ مبادئه الأولى،حين خرج بالدّراسات اللّغوية من الفيلولوجيا-أي تتبّع الظّاهرة اللّغوية في تطوّرها التاريخي- إلى النظرة التّزامنية،الّتي تدرُس الظّاهرة اللّغوية من خلال وصف العلاقة بين أجزائها الدّاخلية في لحظتها الزمنية فحسب،دون النّظر في الجزئيات التّاريخية المحيطة،من أجل معرفة النّظام الكليّ الذي تجتمع فيه هذه الأجزاء وقواعد هذا الاجتماع وتطوّره،و يسمّى هذا النوع من التحليل بـــ"التّحليل المحايِث"،الذي يقتضي عزل كل ما هو خارج القوانين الدّاخلية للّغة لأجل استقاء المعنى.

وقد بنى "دي سوسير" تصوُّره هذا على جملة من الأسس،أهمّها الفصل المبدئي بين الدّال والمدلول،بسنّه لمقولة الاعتباط،التي تعني أنّه ليس هناك علاقة موضوعية وثابتة بين الدّال والمدلول، فأقصى بذلك المرجع الذي يكمن خارج البنية اللغوية وكلّ ما يتعلّق به من معطيات خارجية، فـــ" المعنى ليس كامنا في الإشارة ولا حتى يضاف إليها، وإنّما هو أمر وظيفي يُحدَّد داخل شبكة العلاقات داخل النص نفسه،أي أنّ المعنى يولد من داخل اللغة نفسها وليس من الواقع"[2]، فهو-أي دي سوسير- يدرُس اللّغة عبر عناصرها التكوينية الداخلية لا غير،والكلمات بالنسبة له ليست رموزا تتجاوب مع ما تشير إليه،بل هي علاقات مركّبة من طرفين الأول هو الدال signified والطرف الثاني وهو المدلول signified.

[1]-ينظر م ن ،ص 130.

[2]- عبد الوهاب المسيري، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، ص 137 .

إشكالية العلاقة بين الدال والمدلول في الفكر الغربي

يرى المسيري أنّ المشكلات الفلسفية الكبرى في الغرب تّمّت مناقشتها عبر إشكالية تبدو لغوية محضة،وهي العلاقة بين الدّال والمدلول،التي تحوّلت من إشكالية هامشية إلى إشكالية فلسفية كبرى،نتيجة التّجربة الغربيّة المريرة مع الامبريالية منذ أواخر القرن 16م،والإبادة الغربية للسّكان الأصليين في أمريكا الشّمالية،و الحربين العالميتين،و الإيديولوجيا العنصرية،و ما نتج عن ذلك كلّه من رؤى فلسفيّة حاولت تقويض الذات والموضوع،وهو ما يعني صعوبة وجود علاقة بينهما،و بالتّالي صعوبة وجود علاقة بين الدّال اللّغوي والمدلول الّذي يُشكِّل جزءا من الواقع.و من هنا فإنّ انفصال الدّال عن المدلول أو اتّصاله به،بحسب المسيري،هي قضيّة لغوية لها أبعاد معرفية كليّة ونهائية،باعتبارها تُضمر رؤية للكون[1].

ويميِّز المسيري بين أنواع ثلاث للعلاقة بين الدّال والمدلول وِفقاً لمقياس المسافة بينهما،هي علاقة الالتحام الكامل،و علاقة الانفصال التام،وعلاقة الاتصال والانفصال في آن معا:

1- **الالتحام الكامل بين الدّال والمدلول**:أي أنّ العلاقة بين الدّال المدلول بسيطة،وأنّ الدّال يعكِس المدلول بشكل مباشر،حتّى يصبحان واحدا كما في حالة اللّغة الأيقونية،واللّغة الجبرية،والتفسيرات الحرفية،واللّغة المحايدة،و يعني هذا الاّتصال أيضا أنّ العقل لا يدخل في علاقة مع الواقع،فهو عقل سلبي يعكس الواقع بشكل مباشر دون أيّ إبداع.ويتّفق ألمسيري في ذلك مع المفكّر والفيلسوف الألماني هاربرت ماركيوز Herbert Marcuse (1898-1979)،الذي ينتقد بدوره وبشدّة،الفكر اللّغوي الّذي يُزيل المسافة بين الدّال والمدلول بشكل كامل،في كتابه "الإنسان ذو البعد الواحد" "One dimensional man"،والذي عالج فيه مسألة اللّغة في إطار دراسته لقضايا ومشكلات الإنسان في المجتمع الصناعي

[1]-ينظر م ن ،ص 131

المتقدّم-الرأسمالي والاشتراكي على حد سواء-.فهو يرى أن هذا المجتمع يحاول تكريس لغة مغلقة على ذاتها،وحيدة البعد one dimensional language ،كأداة للهيمنة والرّقابة،و يتمّ ذلك عبر آليات محدّدة، كشيىء اللّغة reification of language بتحويلها إلى جزيئات جامدة،لا تُحِيل إلى أكثر ممّا تعني في الظّاهر،و آلية تسييد المعنى الواحد،عبر لغة الكليشيه،التي تختزِل التّراكيب وتوُحّد بين الدّال والمدلول بشكل مطلق،وعبر تنميط اللّغة،باستعمال الشّعارات والاختصارات،والعبارات الجاهزة،وتسطيح الدّلالة،و يعطي ماركيوز مثالا على ذلك عبارة"ربّ القنبلة الهيدروجينية في أمريكا"، فيكشف "ماركيوز" الخداع الذي يمارسه صاحب العبارة،بوصفه مخترع القنبلة بالأب،فيربط الحنان بالتدمير ،لأنّ 'الأب 'كلمة شاعريّة،تمحو فعالية الكلمة الثانية الفعلية'الهيدروجينية'[1].

2- **انفصال الدال عن المدلول**:و تعني هذه المقولة أن الأسماء لا علاقة لها بُمسمّياتها،وِفق مبدأ الاعتباط السوسيري، وهذا النظر هو نتيجة لاهتزاز فكرة الكليّات وتعدّد المراكز، ذلك أنّ التواصل بين البشر يستدعي وجود كليات وثوابت،و في حالة الانفصال الكامل بين الدّال والمدلول تصبح اللّغة نظاما دلاليا مستقلا تماما عن الواقع،أو أن علاقته به واهية،وهذا يعني أن العقل لا يتفاعل مع الواقع،و لا يمكنه التعامل معه لأنّه لا يستطيع الوصول إليه، فيذعن للعب الدوال أو لا يكترث بالواقع[2]،و هكذا تتحوّل اللّغة إلى نظام مجرّد لا زماني، تشكّله العلاقات الاعتباطية بين الدوال والمدلولات إلى ما لا نهاية،

[1] See Herbert Marcuse , one dimensional man,studies in the Ideology of Advanced Industrial Society Beacon Press Boston 12th printing,1970 USA ,p 98/100/105/106/200

[2]- ينظر عبد الوهاب المسيري،اللغّة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود،ص 132

،وهو ما أدّى إلى اختلال عنيف في وظيفة اللّغة التقليدية،و قدرتها على بناء المعرفة، وعلى أن تكون وسيلة للتّواصل الإنساني،و تعامُل الإنسان مع واقعه[1].

ويلخّص المسيري الأفكار التي تُضمرها قضيّة الانفصال هذه في النقاط التالية[2]:

- أسبقية اللغة على العقل الإنساني، وهو ما يعني إزاحة الإنسان عن المركز.و هو ما يعتبِره شكلاً من أشكال العداء للإنسانية الهيومانية Anti-humanism.
- ضمور الواقع تماما،إذ أنّ اللغة هي التي تنتج الواقع وليس العكس.
- تأكيد أنّ اللّغة نسق مكتفٍ بذاته وقوانينها كامنة فيها،هو تأكيد أنّ اللّغة لا أصل لها،أو أنّ أصلها غير معروف،و هذا نمط عام في الفلسفات الماديّة الّتي ترى أن أصل العالم هو مادّة قديمة،ذاتيّة الّتنظيم،لم يخلُقها أحد، وأنّ الخلق عمليّة غير مفهومة،تمّت بالصّدفة،و إن وُجِد إله فهو المحرّك الأوّل فحسب.

وقد اقتنع الفلاسفة الغربيون بداية بانفصال الدّال عن المدلول،وكان الحلّ بالنسبة لكثير منهم،و خاصّة نيتشه F. Nietzsche وهوبز T. Hobbes ،هو فرض المعنى على الأشياء بالقوّة،و هو ما نتج عنه ظهور الإيديولوجيات العنصريّة،و الجرمانيّة منها على الخُصوص،لكنّ،ومع الخسائر المهُولة لتطبيق هذه القوّة في الحربين العالميتين،عاد دعاة ما بعد الحداثة إلى الفصل المطلق بين الدّال والمدلول، لكن هذه المرّة بتقويضهم لأيّة ثنائيات،لأنّ أيّ ثنائية،في تصوُّرهم،تعني الإيمان بحضور اللوغوس وصدى الثّنائية الأولى في النّظم التوحيدية،أي ثنائية الخالق والمخلوق، وهو ما يعبّر عنه دريدا بقوله: "إنّ الوجه

[1]- ينظر هلال محمد الجهاد،مقال عين الحرّ، العلاقة بين الدال والمدلول ووحشية النموذج المعرفي الغربي، مجلّة أوراق فلسفية العدد 19، ص 20/19.

[2]- ينظر عبد الوهاب المسيري، م ن، صفحات:من 137 إلى 142

المفهوم للإشارة (المدلول) يتجه دائما نحو وجه الإله"[1]،بكلّ ما يعنيه ذلك من إنكار للأصل الرباني للإنسان والطبيعة،و غياب للمعيار المتجاوِز فيسقط كل شيء في قبضة لعب الدوال والصيرورة[2].

وبعد هذا التحليل العميق لإشكالية العلاقة بين الدّال والمدلول في الفكر الغربي،يتجاوز المسيري الطّرحين مجتمِعين،و ذلك بدمجه بداية للصّنفين ضمن مقولة واحدة،فالالتحام والانفصال الكاملين،بحسبه،يتّسمان بإزالة المسافة بين الدال والمدلول،و بالتّالي نفي العلاقة بين العقل والواقع،أي بين الإنسان والمادة،وبين الإنسان والإله.و للخروج من مأزق المسافة هذا،يقدّم المسيري مفهوما جديدا يمكن أن نبني عليه شكلا جديدا من العلاقة بين الدّال هو"المدلول المتجاوز".

المدلول المتجاوز تجاوزا لجدل العلاقة بين الدال والمدلول

يرى المسيري،بدايةً،أنّ هناك مسافة تفصل بين الدّال والمدلول،لكنّها ليست بالهوّة،بل إنّ هناك نقطة مرجعية نهائية يتّصل من خلالها الدّال بالمدلول دون أن يتماهى معه بشكل مطلق،و هي التي يسمّيها بـــ'المدلول المتجاوز'الّذي ليس جزءا من اللغة،بل يسبقها،و هو الذي يمنحُ الإنسان فرصة إدارة الواقع ووصفه والتواصل مع غير لكن مع وجود مركز يحتكِم إليه ويمدّه بالمعيار، فالعلاقة هنا بين الدال والمدلول هي علاقة انفصال واتّصال في الوقت نفسِه، وذلك بفقه مفهوم المسافة،التي يعتبرها المسيري جوهر النسق التوحيدي الإسلامي،ذلك أن مفهوم المسافة في اللّغة بين الدّال والمدلُول هو انعكاس طبيعي لمفهوم المسافة بين الخالق والمخلوق[3].

[1]-عبد الوهاب المسيري،اللّغة والمجاز بين التّوحيد ووحدة الوجود،ص 139

[2]- ينظر،م ن ص 140.

[3]- ينظر عبد الوهاب المسيري، اللغة والمجاز ص 133134/132/131

ويُحاوِل المسيري، من خلال طرحه لمفهوم المدلول المتجاوز،إثبات أنّ الإنسان لا يمكن أن يكون ماديّا،بل هو كائن متجاوِز يؤمن بوجود إله مفارِق،هو المركز الذي يمدّه وواقعه بالقيمة،و يمنحُه في الوقت نفسه حريّته في التصرّف في هذا الواقع،فالإنسان المتجاوِز إنسان حرّ يستخدم المجاز ليعبّر عن أفكاره ومشاريعه وأحلامه وأحزانه ورؤيته لذاته ولغيره وللعالم ما دامت هذه الفسحة موجودة بين الدّال والمدلول،شريطة أن تظلّ تحتكِم إلى مدلول متجاوِز.فلا يقع بذلك في أسر الحرفيّة التي تُماهي بين الدّال والمدلول، وتصيب الإنسان بالجمود،والخروج من التاريخ، ولا اللّعب بالدّوال التي تُنكِر المطلق،فيُصبِح العالم بلا مركز تحكُمه إرادة القوة التي تُشرعِنها لُغته،فاللّغة، حسب المسيري، لابدّ أن تستند إلى مطلق ومركز،و إلّا توقّف التاريخ،ولم يعُد الإنسان قادرا على التواصل مع الآخر،ولا على التعامل مع واقعه وتغييره والإبداع فيه،إنها عودة لأسطورة بابل في ثوب فلسفي هذه المرّة. والخروج من هذا المأزق سيكون بإرجاع اللغة إلى طبيعتها الأولى،أداة للتواصل بين البشر، ووسيلة للعلم والتّفكّر في الكون،و حسن الاستخلاف، بكل ما يعنيه ذلك من حفظ لحق الاختلاف،و ما ينبني عنه من تواصل وتعارف،فلكل اختياره الخاص به"بما لا يعني التناحر ونفي الآخر، إذ أن إمكانية التواصل والتعارف متاحة دائما، وهي إمكانية تدلّ على إنسانيتنا المشتركة، الاختلاف الذي يؤدي للتّدافع وليس للتّناحر[1]".

وفي الأخير يمكن القول أنّ مفهوم المدلول المتجاوِز الذي يطرحُه المسيري لتجاوُز مأزق المرجعيّة في فلسفة اللّغة في الغرب، والذي هو أساس فلسفته اللّغوية،هو واحد من أهمّ إنجازات المسيري، إن لم يكن أهمّها على الإطلاق،والذي قد يُضاهي حتّى عمله الضّخم "موسوعة اليهود واليهوديّة والصّهيونية"،بل إنّ النّظرية اللّغوية الجديدة الّتي جاء بها، وأودعها في

[1]- عبد الوهاب المسيري ، أسئلة الهوية ، موقع الجزيرة نت .
/http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2007/8/2

مُؤلّفاته،وخاصّة في كتابه"اللّغة والمجاز بين التّوحيد ووحدة الوجود،تُعدّ امتداداً لعمله في الموسوعة، وتتويجا لمساره الفكري ككلّ،فمُساءلته للمقولات الغربية التأسيسيّة التي تناولت علاقة الدّال بالمدلول،هي جزء من دراسته للنّموذج المعرفي الغربي،التي استهدف من خلالها إثبات ماديّة الحضارة الغربية،واغتراب الإنسان فيها،وانحراف لغتها،لأنها تخلّت عن المركز والمتجاوِز منذ تأليه اليهود لأنفسهم،إلى تأليه المسيحيّين للمسيح عليه السّلام،إلى قتلهم 'الإله' ثم قتلهم 'الإنسان'وصولاً إلى تأليه المادّة.

ولإن كانت إشكالية العلاقة بين الدّال والمدلول قد حُسمت في التّراث الإسلامي،بعد فتنة خلق القرآن التي قال بها المعتزلة بدافع التمسّك بفكرة تسامي الخالِق ومُفارقته،وخوفاً من دخول النّزعة التّشبيهيّة التجسيدية في الأديان الأخرى إلى الإسلام، وذلك بعد اتّفاق جماهير الأمّة الإسلامية على عدم التّسليم بمقولة التأويل المجازي خشيةَ أن يؤدّي ذلك إلى النّيل من قيمة المفهوم ذاته، جرّاء إزالة المراسي المعجمية للمفهوم،فلا يبقى هناك أيّ مثبّت لمعانيها،كما حدث في المسيحيّة واليهوديّة.و قول الأشعري أخيرا بعدم وجود أساس للقضيّة ما مادام الفاعل والصّفة المسنَدة إليه مُفارِقين ومُتعاليين[1]،إلّا أنّ المسألة مع كل هذا بدأت تُطرح مرّة أخرى على النموذج الإسلامي والتّأثير فيه، وذلك بانتقالها إليه عبر المدّ الفكري الفلسفي والأكاديمي القادِم من الغرب،نتيجة هيمنته وسطوته المعرفية بفعل ظروف الاستعمار والعولمة،و تبعيّة جزء غير يسير من التيارات الفكرية والمناهج التعليميّة له، وهو الأمر الذي حاول عبد الوهاب المسيري باجتهاداته التصدّي له بشكل معرفي ومُمنهج، يقُوم على نقد النّموذج من الدّاخل ونقضِه، وتقديم البديل الذي تُتيحه المرجعية الإسلامية الشّاملة.

[1]- ينظر إسماعيل راجي الفاروقي،م س،ص 67 .

إنّ اهتمام المسيري بالمبحث اللّغوي ومكانته في الثّقافة الغربيّة لم يكن اهتماماً علميّا صرفا،بلا أهداف وغايات كبرى،بل هو نقدٌ وتفكيك،يَعقُبه تركيب وتقديمٌ للبدائل المؤسَّسة وِفق مرجعيّة إيمانية،تحفَظُ المسافة بين الإله ومخلوقاته،دون المساس بمكانة الإنسان خليفةً في الكون،و سيّدا عليه،يستلهِم المِعيار من خالقه في تعميره وتسخيره،ويعبّر عن ذلك كلّه بلغة تعكِس هذه العلاقة المتوازنة بينه وبين الله،وبينه وبين هذا الكون وتضبطها دون أن يحلّ أيّ طرف في الآخر،لغةٌ يكون المدلول فيها جزءا من واقع يَصنعه الإنسان الرّباني،الّذي يُوازِن بين الرّوح والمادّة،ويُحسن أداء وظيفة الاستخلاف،والدّال فيها هو الّذي يعبّر عن هذا الواقع ويُسهِم في حركيّته وتطوّره،ويستنِدان معاً إلى مدلول متجاوِز هو المركز وأساس البناء كلّه الذي يمدّه بالقيمة،لِكَي يتواصَل مشهد التّكريم الذي بدأ باللّغة في جنّة عدن،و ينتهي بالإنسان خليفة في الأرض،يستلهِم المعنى ويصوغه لغة،من مرجِعه الأوّل"الله"مِصداقا لقوله تعالى:"وَ عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا"البقرة 31،فالله هو المرجع الأوّل ولا نملِك نحن إلّا الاجتهاد في استلهام هذه المرجعيّة في اللّغة عبر المجاز،إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

المراجع والمصادر:

- أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، احياء علوم الدين ج 1، المكتبة التوفيقية، القاهرة مصر، الطبعة السادسة 2012.
- أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، الجزء الأول،طبعة محققة عن النسخة الأصلية ومقارنة عن النسختين الخطيتين المحفوظتين بدار الكتب المصرية رقم 11، 13 من علم الأصول.
- عبد الوهاب المسيري، اللّغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود،دار الشروق،القاهرة مصر، الطّبعة الأولى 2002م.
- عبد الوهاب المسيري ،دراسات معرفية في الحداثة الغربية ، دار الشروق القاهرة مصر/ ط 2002.
- عبد الوهاب المسيري ، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار ،الهيئة العامة لقصور الثقافة ،القاهرة ط1 2000
- عبد الوهاب المسيري .سلسلة حوارات .الثقافة والمنهج ، تحرير سوزان حرفي ، دار الفكر دمشق ط1 2006 م.
- إسماعيل راجي الفاروقي ، التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، ترجمة السيد عمر 2010م.
- جيرارد جهامي، الإشكالية اللغوية في الفلسفة العربية، دار المشرق بيروت لبنان ط 1، 1994م.
- عبد السلام المسدي،التفكير اللساني في الحضارة العربية،الدار العربية للكتاب ط 2، 1986.
- سيلفان أورو،جاك ديشان،جمال كولوغلي،فلسفة اللّغة، ترجمة بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان ط 1 ، 2012 م.

- محمود بن عبد الله بن حمود التويجري، اثبات علو الله ومباينته لخلقه،و الرد على من زعم أن معيّة الله للخلق ذاتية، مكتبه المعارف،الرياض،المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى / 1985م .
- ممدوح الشيخ، عبد الوهاب المسيري :من المادية إلى الإنسانية الإسلامية، مطبوعات مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2008 م.
- نوح علي سليمان القضاة،المختصر المفيد في شرح جوهرة التوحيد،دار الرازي للطباعة والنشر والتوزيع،الطبعة الأولى، 1999.
- مجلّة أوراق فلسفية، مجلّة علمية محكمة غير دورية ،العدد 19 خاص بالفيلسوف عبد الوهّاب المسيري،جامعة القاهرة مصر، سنة الطبع 2008 م

- Genette Gerard,Palimpsestes ,translated by Channa Newman and Claude Douninsky,university of Nebraska USA 1997
- Herbert Marcuse , one dimensional man,studies in the Ideology of Advanced Industrial Society, Beacon Press ,Boston 12th printing,1970 USA.
- موقع الجزيرة نت www.aljazeera.net